

مقدمة

لاحتفل الشعوب بذكرى الانتصارات أو المعارك أو مراحل الاستقلال لتتشهد
اناشيدها أو تعزف الحانها أو توزع الحلوى وترفع الأعلام.

لكن الشعوب العظيمة تحتفل بهذه المناسبات الخالدة في تاريخها لتتذكر شهدائها
وابطالها الذين صنعوا المجد وفي الوقت ذاته والاهم أيضا أن تسترجع الذكريات لا
للمديح والثناء ولكن للتعلم والعبر

○ فمعركة تأميم القناة أو حرب السويس ليست قصص بطولات خارقة أو حديث عن
قوة الانتصار أو صلابة المواقف (رغم ان هذا حدث بالفعل وتفاصيله تدعو
للفخر).

○ ومعركة تأميم قناة السويس ليست مجرد ابراز دور فرد وتضخيم أو بلورة تأثير
دور الزعامة السياسية (رغم ان الكتابات والتحليلات الغربية قبل العربية قد اكدت
على دور ناصر و سطوع نجم زعامته الاسطورية).

○ وحرب السويس لم تحدث فجأة ولم تكن وليدة اللحظات والنضالات التي سبقتها
مباشرة ولانقف حتى عند مرحلة قيام الثورة بل تمتد طويلا مع امتداد الاحداث
لتصل الى اللحظات الاولى التي بدأت قوات الاحتلال البريطاني فيها تقصف
الاسكندرية اولا ثم تحتل القاهرة ثانيا ثم مصر كلها ثالثا، لقد ارتبط تاريخ القناة
بتاريخ النضال من اجل التحرير ورحيل القوات البريطانية عن مصر، وتداخل
تحرير الارض مع تحرير القناة (اي عودة السيادة المصرية عليها) ليصبحا مطلباً
شعبياً ووطنياً تجمع عليه القوى السياسية والنخب المصرية منذ نهايات القرن
التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

○ ثم قبل كل ذلك يبقى حفر قناة السويس حلماً راود المصريين لآلاف من السنين لم
تنقطع فيها المحاولات والتجارب البديلة، وفي مرحلة حديثة ومع قصة حفر القناة
واغتصابها على يد الاستعمار الغربى أصبحت القناة مطعماً ومركزاً للتنافس
والصراع بين القوى الاستعمارية، وكانت الطريق الممهد للاحتلال البريطانى
خاصة فى ظل سلاسل الديون وضعف الارادة السياسية وانعدام الولاء الوطنى لدى
النخبة الحاكمة وصناع القرار السياسى المصرى آنذاك.

فمن حيث البطولة وقصص الفداء والتضحية فإن معركة تأميم القناة أو حرب السويس مليئة بالقصص والوقائع، ويقع في مقدمتها الاصرار على حقنا في استرجاع القناة لنا وفي رفض التهديدات البريطانية/الفرنسية ثم الاصرار على مواجهة العدوان الثلاثي رغم عدم التكافؤ العسكري، فالتحام الجيش بالشعب في هذه المواجهة، واخيرا بطولة شعب بورسعيد في مقاومة القوات الغازية ببسالة ظل يضرب بها المثل مصريا وعربيا ودوليا حتى وقت قريب.

- ان اختلاط دم العسكريين مع دماء الجماهير امر يدعو للعتة والفخر.
- كما ان اندماج دماء المسلمين والمسيحيين من المواطنين ببورسعيد يدل على الوحدة الوطنية العميقة وصلابتها دون بيانات وشعارات تطلق او جلسات صلح ووافق تعتقد، فنقرأ اسماء شهداء (منير فهمي اقلادبولس / يونس كامل يونس سعد/ سعد غالى جرجس/ روفائيل رأفت بطرس/ رفقه عزيز جريس/ جوده اسكندر مساك/ جلال لبيب اسكندر مرزوق) بجانب اسماء (محمد مغوله / السيد سليمان محمد هاشم / مصطفى عبدالسميع / محمود احمد رجب / محمد سليمان حسين / محمود عبدالمقصود / محمود على احمد / على ابوزيد)
- ويتفاعل الدم العربى الواحد فى انبل صورته، فهاهو ضابط البحرية البطل السوري جول جمال الذى اغرق المدمرة الفرنسية الحديثة والعملاقة امام سواحل البرلس، يقدم حياته هو ورفاقه في مصر وأصبحوا شهداء لا فارق بينهم وبين أي شهيد مصري آخر.

○ إن قراءة يوميات التأميم تساعد بالضرورة على إنعاش الذاكرة التاريخية لشعبنا وإضاءة الطريق أمام أجيالنا الجديدة والمستقبلية في معرفة تاريخهم والاعتزاز بأيامهم المجيدة ومن ثم الثقة في قدرات شعبهم وفى أنفسهم والانطلاق نحو المستقبل بخطى ثابتة وقادرة على صنع الآمال وتحقيق الانتصارات، وكما يذكر المؤرخ الجبرتي فان (التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسيلاطين وغيرهم والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت ..

وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتصحح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن)

○ إن معركة تأميم قناة السويس أكدت على دور الزعامة السياسية وتأثيرها في نصج الأحداث وتفجير الطاقات الشعبية للأمة، ونحن العرب كنا من الذين امتلكوا تراثاً طويلاً في صياغة الدور الذي يقوم به البطل، وفي تحديد صفاته وشخصيته. (فلم يجهل العرب الذين من أروضهم خرج مخترع العجلة في التاريخ حاجتهم إلى أيد حازمة تتولى قيادة العربة، وتسمك بزمام خيلها) بل أسرفوا في تصور شخصيته وتحديد المطلوب منه كما يرى د. انيس صايغ، فتحلم به الأمة منقذاً لها يضرب التتين بسيفه دون أن ينزل عن ظهر جواده.

○ قبل تأميم قناة السويس كانت النظرة الشعبية العربية لعبد الناصر لاتتعدى كونه رجلاً عسكرياً قاد مع زملائه انقلاباً عسكرياً في يولييه ١٩٥٢، وكانت تجارب الانقلابات العسكرية المتتالية في المشرق العربي لاتنشر بالخير، لكن إشارات عديدة جاءت من القاهرة جعلت البعض يتمهل في أحكامه، والأخر ينفي وجه الشبه مع ما جرى بالمشرق.

▪ خاصة وإن كسر احتكار السلاح كان خطوة شجاعة وأثارها مدوية، ومواجهته للإستعمار مع دعمه لثورات التحرير

▪ وتفاعل ذلك مع إلغاء الملكية والإصلاحات الاجتماعية البارزة، لكن كل هذا لم يفجر طاقات الجماهير العربية وأحزابها ونخبها المتعطشة للتغيير

▪ بل كان تأميم القناة والثبات في مواجهة الضغوط ثم مواجهة العدوان الثلاثي وعدم الاستسلام هي الأحداث الفاصلة لموقف الجماهير العربية في اكتشاف الفارس / المنقذ الذي يضرب التتين بسيفه دون أن ينزل عن ظهر جواده.

○ في تقرير بأغسطس ١٩٥٦ نشره المعهد الملكي للشؤون الدولية تحت عنوان "بريطانيا وقناة السويس" كرر عدة مرات الضرورة الإستراتيجية لقناة السويس بالنسبة إلى بريطانيا؟ وكانت النتائج العسكرية بالمقدمة ثم النتائج الإقتصادية للقناة والنفط الذي يمر من خلالها، ووقعت حرب السويس كنتيجة طبيعية لصدام الاستراتيجيات، ومن نتائجها الهامة التي رصدوها هم، أن الحرب كشفت ضعف

تحالف منظمة حلف شمال الأطلسي وتخطيطه وتعاونيه (من وجهة نظر الجنرال ديغول).. وفرض نهايتها أشارت إلى الانهيار الجازم لبريطانيا وفرنسا كسلطات عالمية، وعجلت الأزمة من تصفية الاستعمار، وسقط انطوني ايدن وقدم استقالته من رئاسة مجلس الوزراء وارتفعت مكانة ناصر كثيراً، مما ساعده على ترويج الوحدة العربية ولما لا وهو الفارس الذي حارب التتين.

○ ولأنه أخيراً كان يمثل ذلك التيار المتصاعد لحركة التغيير العربية، ولحركة التحرر الوطني في العالم الثالث وبدأ نجمه يبرز بجانب تيتو ونهرو كقيادة لجهة عدم الانحياز، فإن القوى الاستعمارية الكبرى قررت ضربه في بداية الطريق بحيث يكون عبرة للآخرين، وإنذاراً موجهاً لهذا التيار وتلك الجبهة، وأعلن أيدن هذا الموقف بوضوح عشية تأميم قناة السويس حينما أرسل إلي أيزنهاور يقول له: (أن الأوان لموقف حاسم ونهائي من ناصر، إن نفوذكم ونفوذنا يضع إلى الأبد وبلا رجعة في الشرق الأوسط إذا لم نحسم كل شيء).

○ لكن الرياح لم تأت بما تشتهي سفنهم، فما لبثت الحرب ان إنتهت والعدوان الثلاثي فشل في تحقيق أهدافه "وتنسحب القوات البريطانية والفرنسية كلياً من الأرض المصرية" وفي ٨ أبريل/نيسان ١٩٥٧، أعيد فتح القناة، كما قامت إسرائيل بعد شهر بالانسحاب من سيناء، ونتيجة الفشل المحسوس جداً لمحاولة الاحتلال والأزمة والمحاولة البريطانية الفاشلة لإسقاط ناصر، ارتفعت مكانته وتوج كرئيس وزعيم لمصر وللعرب بلا منازع.

إن القناة حلم راود المصريين لآلاف من السنين لم تنقطع فيها المحاولات والتجارب البديلة، وفي مرحلة حديثة ومع قصة حفر القناة واغتصابها على يد الاستعمار الغربي أصبحت القناة مطمعاً ومركزاً للتنافس والصراع بين القوى الاستعمارية، وكانت الطريق الممهد للاحتلال البريطاني.

○ لذا ارتبط تاريخ القناة بتاريخ النضال من اجل التحرير ورحيل القوات البريطانية عن مصر، وتداخل تحرير الارض مع تحرير القناة ليصبحا مطلباً شعبياً ووطنياً يجمع عليه المصريون.

○ إن قصة وتاريخ حفر القناة بصورها المختلفة من عهد الفراعنة مروراً بالعصور التالية والإسلامية منها ووصولاً إلى العصور الحديثة وخروج قناة السويس إلى الوجود، تشير بكل وضوح إلى حقائق هامة ومصيرية:

- أولها إن القناة ضرورة فرضتها الجغرافيا وموقع مصر.
- وثانيها أنها محاولة البشر لاستثمار الموقع ولتطويره أي الجهد الحضارى الذى يعيد تشكيل الواقع والموقع.
- وإنها قد ارتبطت بالعوائد التجارية والاقتصادية.
- كما اندمجت فى الوقت نفسه مع ضرورات الامن القومى ورسم الحدود وصد الهجمات المغيرة على الوادى عامة والدلتا على وجه الخصوص.
- وفى سبيل هذا (صنع الحضارة وصياغة الحقائق) دفع الشعب المصرى الكثير من عرقه وماله وتضحياته وضحاياه

لكل ذلك لم يكن غريباً ان يوضع الجلاء وتأميم القناة فى بوتقة واحدة فى برامج التنظيمات والأحزاب السياسية المصرية ابتداء من عشرينيات القرن الماضى. أى قبل الثورة وقبل ان يتخذ عبد الناصر قراره بعشرات السنين.

ان صفحات قناة السويس وتأميمها مليئة بالتجارب ومشحونة بالعواطف والعبير، وقد تناول احداثها العديد من المؤلفين والمحللين، لذا حاولنا هنا الايجاز من جهة والتركيز على ايام التأميم من جهة اخرى، والتعريف بالشخص والاحداث قدر المستطاع بما يتيح للأجيال الجديدة اقتحام اجواء هذه المرحلة، ولعل هذه المحاولة المتواضعة ان تتجح فيما تصبو اليه

و على الله قصد السبيل...

مجدى محمد رياض

القاهرة ٢٠١٠